OPEN ACCESS
Hazara Islamicus
ISSN (Online): 2410-8065
ISSN (Print): 2305-3283
www.hazaraislamicus.com

Hazara Islamicus, Vol.:10, Issue:2,July-Dec 2021
PP: 1-14

التفكير السياقي عند العرب: أسسه ونشأته وتطوره

The contextual thinking of the Arabs: its foundation, its origin and its development.

Dr. Samia Nazish
Assistant Professor, Department of literature, Faculty of Arabic, International University Islamabad.

Dr. Sanaullah Hussain
Associate Professor, Department of Quran and tafseer, Facculty of Arabic and Islamic studies, AIOU Islamabad.

Abstract

The term "context" in the Arab heritage has come in this form and is expressed in different terms, such as case, evidence, context, position, etc, Whether it is spoken by linguists, rhetorical scholars, Quranic interpreters, or Hadith scholars. Scholars of ancient times have pointed to the importance of context. They said their abbreviated term "for each situation, speech". "Therefore, not considering the context of the text leads to error in understanding the text, whether this error is in whole or in part.

The context was inherent to our scholars in the Arab heritage, Some contemporary say: Rhetorical Scholars recognized the idea of the conext, nearly 1,000 years, the recognition of the concepts of "situation" and "speech" as two distinct foundations of the analysis of meaning is now regarded in the West as the result of the adventures of contemporary reason in the study of language.

The context is one of the issues that have attracted the attention of scholars in the Arab since ancient times. This led me to choose a field of study, The importance of this topic lies in the importance of context in ancient Arabic studies. The reasons for selection can be summed up in these questions posed by the subject: What is the context? What are the features of its uses in Arab heritage?, What is the importance of the context among the scholars of linguistics, rhetoric, interpretation, and Hadith in the Arab heritage?

Keywords*: The contextual thinking, its foundation, its origin, its development, Arab Heritage.*

مقدمة:

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على النبي الكريمﷺ أفصح العرب والعجم لسانا وأوضحهم بيانا ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد:

إن لفظة السياق في التراث العربي وردت بهذه الصيغة وعبّر عنها بتعبيرات مختلفة، مثل: الحال، الدليل، القرينة، المقام، الموقف وغير ذلك. سواء كان وروده عند اللغويين أو البلاغيين أو المفسرين أو الأصوليين أو المحدّثين. وأشار العلماء قديما إلى أهمية السياق، وقالوا عبارتهم الموجزة الدالة " **لكل مقامٍ مقال**".[1] وعليه فإن عدم اعتبار السياق للنص تؤدي إلى الخطأ في فهم النص، سواءً كان هذا الخطأ كليًا أو جزئيًا.

كان السياق متحكما أصيلا عند علمائنا في التراث العربي ، يقول بعض المعاصرين: " ولقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبًا على زمانهم ، لأن الاعتراف بفكرتي "المقام" و"المقال" باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة." [2]

فالسياق يعد من القضايا التي نالت اهتمام العلماء في العرب منذ القديم ، وهذا ما حملني على اختياره مجالا للدراسة ، فجاءت هذه الدراسة بعنوان: " **التفكير السياقي عند العرب: أسسه ونشأته وتطوره** ". فإن أهمية هذا الموضوع تكمن في أهمية السياق في الدراسات العربية القديمة. وأسباب الاختيار يمكن إجمالها في هذه التساؤلات التي يطرحها الموضوع: ما هو السياق؟ ما هي ملامح استخداماته في التراث العربي؟ ما أهميته عند علماء اللغة والبلاغة والتفسير والأصول والحديث في التراث العربي؟

التمهيد:

إن السياق حام الدارسون حول مفهومه ، وضعوا له تعاريف ، فتنوعت أقوالهم. معظمها يدور حول هذا المفهوم أنه ارتباط الكلام بالسباق واللحاق في أسلوب الخطاب. كما عرّفه بعض المعاصرين بأنه:

" بناء نصي كامل من فقرات مترابطة، في علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة."[3]

فالسياق مجموعة من الكلمات وثيق الترابط بحيث يلقي ضوء لا على معاني الكلمات المفردة فحسب بل على معنى الفقرة. إن معاني الكلمات المفردة يمكن أن تتعدد ويكون في دلالتها تنوع ، فلا يظهر معنى الكلمة المراد إلا من خلال وضعه في النص الذي ترد فيه.

السياق يتركب من نوعين: اللغوي وغير اللغوي. اللغوي هو الذي ينتج عن ترابط الأصوات فيما بينها لتوليد الكلمات ، والكلمات فيما بينها لتشكيل الجمل ، والجمل فيما بينها لتشكيل النص." [4] فهذا النوع من السياق يشمل المفردات التي يتحقّق بها التركيب ، والوحدات اللغوية (الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية)، وطريقة ترتيب هذه العناصر اللغوية داخل التركيب ، وعلاقات المفردات في الجملة. وهذا لا يشتمل على الجملة وحدها، بل ينتظم الفقرة أو الصفحة أو الفصل أو الباب أو الكتاب كلّه أو السورة كلّها.

وغير اللغوي يشمل العناصر العديدة ، ومنها: شخصية المتكلّم ، وشخصية المخاطَب ، وما بينهما من علاقات ، والبيئة المحيطة بالمتكلّم والمخاطب ، والزمان والمكان ما يقال كلام فيه.

قد اهتم العرب منذ القديم بالسياق اهتماما بالغا رغم أنهم لم يحددوا المصطلح ، لكن السياق متجذر في التراث العربي عند علماء اللغة والبلاغة والتفسير والأصول والحديث. أطلقوا عليه تعبيرات مختلفة، مثل: الحال، الدليل، القرينة، المقام، الموقف وغير ذلك. يمكن لفت النظر إلى دور هؤلاء العلماء العرب في دراسة السياق ونشأته وتطوره على وفق اهتمام كل منهم على النحو التالي:

أولا: التفكير السياقي عند علماء اللغة:

إن كلمة السياق من الألفاظ التي استخدمها القدامى من النحاة، وقد عنوا به وبدوره في تحديد الدلالة. ومن هؤلاء:

الخليل بن أحمد[5]، وهو من أوائل النحاة الذين اعتمدوا على السياق اللغوي في دراسته للتراكيب النحوية، كما يعتبر من الروّاد الذين اهتموا بعناصر سياق الموقف المتمثلة في المتكلّم والمخاطب والعلاقة بينهما، وذلك أن:

" (قد) فجواب لقوله: لما يفعل، فتقول: قد فعل، وزعم الخليل أن هذا الكلام لقوم ينتظرون الخبر" [6] ، أي: المخاطَب يحتاج إلى تأكيد الجواب، فلابد أن يراعى المتكلّم حال المخاطب، ويستخدم (قد) التي تفيد التأكيد مع الماضي.

ثم أولى سِيبَوَيْه [7] كلا من السياق اللغوي والسياق غير اللغوي اهتماما كبيرا، وقد عنى بالسياق اللغوي في ترتيب العناصر اللغوية عناية كبيرة، فقد استعان به في توضيح العنصر المحذوف من التركيب، عند كلامه عن قوله عند كلامه عن قوله تعالى (بل ملّة إبراهيم حنيفا) [8] "أي: بل نتّبع ملّة إبراهيم حنيفا، كأنه قيل لهم: اتَّبِعوا، حين قيل لهم: (... كونوا هودا أو نصارى) [9]

كما اعتمد على السياق غير اللغوي بعناصره المختلفة، واستعان به ببيان العلاقة بين المتكلّم والمخاطب فقال: " فإذا قلتَ: " كان زيدٌ "، فقد ابتدأتَ بما هو معروف عنده مثلَه عندك فإنّما ينتظر الخبر. فإذا قلتَ: " حليماً "، فقد أعلمتَه مثلَ ما علمتَ. فإذا قلتَ: "كان حليماً "، فإنّما ينتظر أن تعرّفه صاحب الصفة." [10]

واهتم كذلك ببيان مضمون الرسالة، واستعان بغرض المتكلّم كثيرًا في توجيه الإعراب، وبملابسات الحال في الحكم بصحة التركيب أو عدم صحته.

بعد سيبويه جاء ابن جِنّي [11] الذي اهتم بسياق الحال وتحليل الحدث الكلامي صوتيًا وصرفيًا ونحويًا، قد التفت إلى قضية علاقة الدلالات الصوتية من نبر وتنغيم وأثرها في فهم المعنى، واهتم بأثر القرائن الحالية في إيضاح المعنى.

وتكلّم عن العلاقة بين الحذف وسياق المشاهدة أو الحال المتصل بالطريقة التي ينطق بها المتكلّم كلامه فقال: " وقد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه

ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته." [12]

ثانيا: التفكير السياقي عند علماء البلاغة:

قد اهتم البلاغيون في دراستهم بالسياق، وعنوا به من خلال العبارة المشهورة: **لكل مقام مقال،** الذي ورد في بيت الحُطيئة [13] يخاطب عمر بن الخطاب ﷺ. [14]

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَدَاكَ ٱلْمَلِيْكُ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا [15]

وذهب بشر بن المعتمر [16] – فيما نقله عنه الجاحظ – في صحيفته المشهورة "الرسالة" إلى أن:

" وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال." [17]

أي: الكلمة لا يشرف بأن يكون فخما وعذبا ولا يفيد، يجب أن يوافق بحال السامعين.

وهو الأمر الذي يوضّحه الجاحظ بقوله:

> " وينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات." [18]

ونقل الجاحظ عن ابن المقفّع [19] قوله:

> " إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو....." [20]

وقد استمر المفهوم نفسه لمقولة " **لكل مقام مقال** " عند الخطيب القزويني [21] الذي ذهب إلى أن:

> " وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكيّ يباين خطاب الغبيّ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام." [22]

قد جعل القزويني " **مطابقة الكلام لمقتضى الحال** " منبعا ومصدرا للبلاغة، فالحال هو:

" الأمر الداعي للمتكلّم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، وهو مقتضى الحال

مثلا كون المخاطب منكراً للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال، وقولك: إن زيدًا في الدار مؤكدًا بإن كلام مطابق لمقتضى الحال." [23] أي: مقتضى الحال هو أن يكون الكلام مطابقا لحال السامعين والموطن الذي يقال فيه.

وقول القزويني: **لكل كلمة مع صاحبتها مقام**، ففي قوله: " لكل كلمة مع صاحبتها" إشارة إلى السياق اللغوي و" مقام " يشير إلى فكرة السياق غير اللغوي.

يعني أنّ لكل كلمة كالفعل مثلا مع صاحبتها كإن الشرطيّة مثلا مقام، وهو الشك في وقوعه، ليس هذا المقام للكلمة الأخرى، فمقام الفعل باقتران أداة الشرط (إن) يختلف عن مقامه مع أداة الشرط (إذا)، مقام (إن) يقتضي الشرط، ومقام (إذا) يقتضي التحقيق بحصول الشيء. تشترك أدوات الشرط (إن) و(إذا) في أصل المعنى وهو الشرط لكن تختلف من حيث المقام. وكذا لكل كلمة من أدوات الشرط مع الماضي مقام، ليس لها مع المضارع. ففي الماضي مقامها إظهار الوقوع وفي المضارع إظهار الاستمرار والتجدد. وهكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام.

وذهب القزويني إلى أن المطابقة هي ما أسماه عبد القاهر الجرجاني[24] بالنظم وفكرة النظم عنده تقوم على فكرة توخّي معاني النحو بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام. هو يقول:

" وهل تشكّ إذا فكّرت في قوله تعالى: (**وقيل يا أرض ابلعي مآءك ويا سماء اقلعي وغيض المآء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين**)[25] ، فتجلّى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلاّ من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقريَها إلى آخرها وأنّ الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها؟ " [26]

يشير الشيخ هنا إلى تنسيق الكلمات في تتابع الألفاظ إلى معنى قصده المتكلم، وهذا التتابع يشمل الجملة والعبارة والنص، وهو في ارتباط كل كلمة بما بعدها وبما قبلها، أي: الربط بين جملة وجملة من حيث علاقتها بالمعنى. ويتضح به أنه نظر إلى الكلام من الجانب اللغوي والمقام الذي يرد فيه معاً.

فالمقام عند البلاغيين يتضمن عناصر شتى أهمها: الخطاب، وطرفاه (المخاطِب والمخاطَب)، الظروف والملابسات المحيطة بالموقف الكلامي، وهو ما عرف الآن بـ " سياق الحال ".

ثالثا: التفكير السياقي عند علماء التفسير:

كان المفسرون من أسبق العلماء الذين أدركوا أهمية السياق، واستعانوا به كونه وسيلة مهمة من وسائل تحديد المعنى المراد. واستخرجوا الدلالات القرآنية معتمدين على نوعي التفسير: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

التفسير بالمأثور:

هو عبارة عن تفسير القرآن بالقرآن والسنة وأقوال الصحابة، يقول ابن كثير[27]: " إنّ أصحّ الطرق في ذلك أن يفسّر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له... إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى

بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها." [28]

التفسير بالرأي:

فهو " عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد، بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب ومناحيهم في القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالاتها، واستعانته في ذلك بالشعر الجاهلي ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التي يحتاج إليها المفسِّر." [29]

فهذه الطرق تعتمد على السياق بنوعيه، السياق اللغوي (الداخلي) والسياق غير اللغوي (الخارجي).

السياق اللغوي:

يدخل في هذا السياق ثلاثة أقسام: سياق النص القرآني بكامله، وسياق السورة، وسياق الآية.

السياق غير اللغوي:

يندرج ضمنه بعض القرائن المقامية التي قد أشار إليها المفسّرون، ومن أبرزها:

معرفة أسباب النزول

معرفة زمان نزول الآية

معرفة مكان النزول

معرفة الناسخ والمنسوخ [30]

فهذه العناصر اشتملت على السياق اللغوي والحالي، وفهم المعنى القرآني لا يتحقّق إلا بعد معرفة سياق الكلام.

رابعا: التفكير السياقي عند علماء الأصول:

لقد اعتمد الأصوليون[31] على فكرة السياق في بيان المعنى في النصوص الشرعية، وكان أول من أشار إلى السياق هو الإمام الشافعي[32] حين وضع بابا في الرسالة أسماه: "الصِّنف الذي يبيّن سياقُه معناه "، وذكر في ثناياه كلاما واضحا عن أهمية السياق في توجيه المعنى، فهو يقول:

" فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها: اتساعُ لسانها، وأنّ فطرَته أن يخاطبَ بالشيء منه عامًّا ظاهرًا، يراد به العام الظاهر، ويُستغنى بأول هذا منه عن آخره. وعاماً ظاهراً يراد به العام، ويدخله الخاصُّ فيستدلّ على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاماً ظاهراً يراد به الخاص. وظاهراً يُعْرَف في سياقه أنّه يراد به غير ظاهره. فكلّ هذا موجود علمه في أول الكلام، أو وسطه، أو آخره." [33]

والإمام الغزالي[34] قد استخدم في ضمن إشاراته للسياق مصطلح القرائن بدلًا من مصطلح " السياق " فهو مرادف السياق، فقال موضحا مجال عمل القرينة:

" ويكون طريقُ فهم المراد تقدّمَ المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطَبة، ثم إن كان نصًّا لا يُحتمل كفى معرفةُ اللغة، وإن تطرّقَ إليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقةً إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينة إما لفظ

مكشوف...، وإما إحالة على دليل العقل...، وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين بدركها المشاهد لها، فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة أو مع قرائن من ذلك الجنس أو من جنس آخر حتى توجب علما ضروريا بفهم المراد أو توجب ظنًا، وكل ما ليس له عبارة موضوعة في اللغة فتعيّن ففيه القرائن." [35]

واستعمل الإمام الشاطبي[36] لفظ المساق، يعني به السياق، وقال:

" المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان، والذي يكون على بال من المستمع والمتفهّم الالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية، وما اقتضاه الحال فيها، لا ينظر في أولها دون آخرها.... فلا محيص للمتفهّم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلّف، فإن فرق النظر في أجزائه، فلا يتوصل به إلى مراده." [37]

في موضع آخر قد تنبه إلى أهمية السياق في تحديد المعنى، حيث يقول: " ووجوه الاستعمال كثيرة، ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال التي هي ملاّك البيان." [38]

فهذه الإشارات تكشف عن مفهوم السياق وأهميته عند الأصوليين، ويرى بعض الباحثين أنه: " يمكن تلخيص القول في السياق عند الأصوليين وغيرهم من علماء العربية في النقاط الآتية:

الأولى: أن السياق هو الغرض، أي: مقصود المتكلم في إيراد الكلام.

الثانية: أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها.

الثالثة: أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر والتحليل، ويشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام." [39]

خامسا: التفكير السياقي عند علماء الحديث:

كان لعلماء الحديث اهتمام واضح للسياق في كشف معنى الحديث الشريف، سواء أكانوا من علماء غريب الحديث [40] أم من شراح الحديث أم من علماء ضبط الحديث ومتونها. استخدموا الكثير من الألفاظ لدلالة السياق مثل: مقتضى الظاهر، وظاهر الحديث، وسياق الحديث، وقرينة السياق، وسياق الرواية وغيرها. وقاموا بجمع الأحاديث وترتيبها وتصحيحها وتبويبها وشرحها بحسب السياق.

ومن مراعاة السياق عندهم:

أولا: ترتيب السنة على أساس السياق

يقول أحد الباحثين:

" لقد لفت نظري واسترعى انتباهي طويلا دقة المحدّثين في هذا الباب وهم يتعاملون مع السنة النبوية، وسياق

الخ□اب فيها صنيع الحافظ ابن حبان البستي [41] في صحيحه المسمى" التقاسيم والأنواع "، إذ جعل السنة بين يديه، بل ملء خاطره وعينه، ونظر في كيفية صدورها عن النبي ﷺ، والسياق الذي جاءت فيه، ثم قسمها أقساما وجعل تحت الأقسام أنواعا، حتى يسهل منها الاستنباط وتعرف منها معاقد الأحكام الشرعية فلا يزل قارؤها ولا يخ□ئ المجتهد فيها ولا توضع إلا في مواضعها." [42]

وقال الحافظ ابن حبان:

> " فتدبّرت الصحاح لأسهل حفظها على المتعلّمين وأمعنت الفكر فيها لئلا يصعب وعيها على المقتبسين فرأيتها تنقسم خمسة أقسام متساوية متفقة التقسيم غير متنافية. فأولها الأوامر التي أمر الله عباده بها. والثاني النواهي التي نهى الله عباده عنها. والثالث إخباره عما احتيج إلى معرفتها. والرابع الإباحات التي أبيح ارتكابها. والخامس أفعال النبيﷺ التي انفرد بفعلها. ثم رأيت كل قسم منها يتنوع أنواعا كثيرة ومن كل نوع تتنوع علوم خ□يرة ليس يعقلها إلا العالمون الذين هم في العلم راسخون." [43]

بهذا يتضح أن عمل الحافظ ابن حبان قائم على أساس سياقي، ومن ثم يسهل للفقهاء ومجتهدين التفسير والشرح للأحكام الشرعية.

ثانيا: معرفة الراوي

ومن مراعاة السياق عندهم: " معرفة مخارج الحديث هل هو فرد أو عزيز أو مشهور أو متواتر[44]، ولهذا حصروا أسماء الصحابة الرواة، ومن روى عنهم في طبقات متتابعة، وبدءوا بالصحابة فحددوا تاريخ إسلام كل واحد منهم، وحضوره المشاهد النبوية ومجالسه الشريفة، وكم لازمه.... وتفصيل حتى وفاته، وكم روى من الأحاديث، وهل سمعها مباشرة من النبيﷺ؟ أو بعضها سمعه مباشرة أو بعضها رواه عن إخوانه من الصحابة، وما هي الأحاديث التي سمعها، ومتى كان ذلك في غاية التدقيق حتى يميزوا في ذلك بين المكي والمدني من الأحاديث ويتوصلوا إلى الناسخ والمنسوخ، وتكون الأحاديث النبوية في سياقها متوافقة مع النص القرآني، فابن عباس رضي الله عنهما [45] مثلا قد توفي النبيﷺ وقد راهق الحلم وله من الأحاديث العدد الوفير، فبحثوا طويلا لمعرفة سماعاته من النبيﷺ، وسماعاته من الصحابة أو التابعين، نظرا لتأثير هذا في الأحكام الشرعية واستنباط الفقه." [46]

ثالثا: معرفة زيادات الرواة بعضهم على بعض

" قد أخذت هذه المسألة من المحدّثين جهوداً كبيرة للوصول إلى ألفاظ الحديث كلّها في إطار التأكد من سياق التلقّي والاتصال، فما كان عن الثقات سموه زيادات الثقات، وكان لهم فيه موقف في تصحيحه أو قبوله، وما كان عن الضعفاء ذكروه ودوّنوه للمعرفة ونصّوا على ضعفه وعدم الاعتداد به." [47]

رابعا: أسباب ورود الحديث

كما أن معرفة أسباب نزول القرآن تفيد في فهم النص القرآني، فإن الحديث أيضا يحتاج إلى فهم أسباب وروده في مراعاة السياق، وقد عُني المحدثون بذلك عناية كبيرة، حينما يشرحون الحديث يذكرون أسباب وروده لكشف معاني الأحاديث، إذ لا يؤخذ الحديث منفصلاً عن سببه، فهذا قد يتسبب في سوء فهمه.

خامسا: الجمع بين روايات الحديث كأنه جملة واحدة

قد تعامل المحدّثون مع الحديث الشريف في مراعاة السياق على أنه جملة واحدة، وهذا الأمر: " قد اقتضى ذلك جمع الطرق والروايات كلّها، لتحديد كيفية صدور الحديث النبوي. وإذا كان علماء القرآن قد وضعوا من ضوابط التفسير جمع الآيات ذات الموضوع الواحد، وتفسير القرآن بالقرآن، فإن المحدّثين قد سلكوا هذا المسلك وجمعوا روايات الحديث الواحد وطرقه ليفسر بعضه بعضا، ويدرك الناظر في طرق الحديث معاني الحديث ومقاصده بدقة." [48]

واعتمد هؤلاء في الجمع بين الأحاديث على القواعد النحوية والصرفية والبلاغية، وعلى القواعد الأصولية كالعموم والخصوص وكالتقييد والإطلاق، وعلى بيان اختلاف أحوال الناس حسب مقتضى مراعاة الظروف. واستعانوا بالآيات القرآنية وبالحديث زيادةً في الثقة.

سادسا: الترجيح بين الروايات عند الاختلاف

من مراعاة السياق عندهم الترجيح بين الروايات عند الاختلاف إما بالسند بأحوال رواته ضبطا واتقانا وفهما، أو بمتن الحديث بألفاظه، فيرجّحون الرواية الأوفق لسياق الحديث والأظهر في تأدية معناه.

ثامنا: النسخ بين الأحاديث التي تبدو المتعارضة

النسخ يعدّ من العناصر السياقية المتصلة بالنص، استخدمه المحدّثون لرفع الإشكال بين الأحاديث المتعارضة واعتمدوا على نسخ السنة بالقرآن، ونسخ السنة بالسنة اعتمادا على تصريح النبي الكريمﷺ، أو الصحابي ﷺ، أو بمعرفة التاريخ أو غير ذلك.

الخاتمة:

إن فكرة السياق كانت مطروحة في الفكر الإنساني منذ العلماء العرب القدامى سواء كانوا في اللغة أو البلاغة أو التفسير أو الحديث أو الأصول. فهم قد أدركوا هذه الوظيفة المهمة ودلالتها ، وطبقوها في دراستهم لمعرفة دقائق الكلام ومحاسنه الخفيّة وأحوال تراكيبه ومعانيه. فتلخيص القول في مفهوم السياق عندهم في النقاط التالية:

السياق هو مقصود المتكلم من إيراد الكلام.

السياق هو المواقف والأحداث ,والملابسات التي ورد فيها النص.

السياق هو ما عرف بالسياق اللغوي الذي يشمل المفردات والجملة والجمل والفقر ، والسياق غير اللغوي الذي يشمل المتكلم والمخاطب والكلام.

هذا وبالله التوفيق

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

الهوامش (References)

[1]. قد ورد في كلام الأدباء والشعراء والبلاغيين والنقاد القول المشهور(لكل مقام مقال) ومنهم بشر بن المعتمر، والجاحظ، وابن المقفع، والجاحظ وغيرهم.

[2]. اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان عمر ، عالم الكتب، ط5، 1427هـ – 2006م ، ص: 337.

[3]. معجم المصطلحات الأدبية: ابراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية، صفاقس، تونس، 1986م ، ص: 201 – 202.

[4]. دلالة السياق وأثرها في فهم الحديث النبوي: د. عبد المحسن التخيفي ، المقال المنشور في موقع أهل الحديث(www.Ahlalhadeeth.com). ص: 04.

[5]. هو الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي، العروضي النحوي اللغوي، سيد الأدباء في علمه وزهده. حصر علم اللغة بحروف المعجم وسماه كتاب العين. ت175هـ. ينظر: التاريخ الكبير: مُحَمَّد بن إسماعيل، أبو عبدالله الإمام البخاري ت256هـ، تحقيق: مُحَمَّد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن، (ب.ت)، 200/3.

[6]. الكتاب: سيبويه، تحقيق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ ، 223/4.

[7]. هو إمام أهل النحو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، من أهل فارس، الملقب بسيبويه، معناه بالفارسية "رائحة التفاح"، ت180هـ. ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء: عبد الرحمن بن مُحَمَّد، أبو البركات كمال الدين الأنباري ت 577هـ، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، ط3، 1985م ، 54/1.

[8]. سورة البقرة: 135.

[9]. سورة البقرة: 135.

[10]. السابق: 1/ 47 – 48.

[11]. هو أبو الفتح عثمان بن جنّي الموصلي النحوي المشهور، كان إماماً في علم العربية، صاحب التصانيف، ت392هـ. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ت681هـ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر– بيروت، ط1، 1900م ، 246/3.

[12]. الخصائص: ابن جنّي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، (ب.ت) ، 362/2.

[13]. هو أبو مليكة جرول بن أوس بن مالك، الشاعر المخضرم، كثير الهجاء، من فحول الشعراء، ت35هـ أو 45هـ. ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1415هـ ، 150/2.

[14]. هو أَبو حفص عمر بن الخطّاب القُرَشي العدوي، الملقب بالفاروق، ثاني الخفاء الراشدين ومن كبار أصحاب الرسول ﷺ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ت23هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: أبو عبدالله مُحَمَّد بن سعد ت230هـ، تحقيق: مُحَمَّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1410 هـ – 1990م. 201/3 ، والتاريخ الكبير: 3/5.

[15]. ديوان الحطيئة: دراسة وتبويب/ د. مفيد مُحَمَّد قميحة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت – لبنان، 1993م ، ص:164. ويقول الميداني في شرح هذ البيت: معناه: أحسِنْ إليَّ حتى أذكرك في كل مقام بحُسْن فعلك. مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الميداني النيسابوري ت 518هـ، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت، لبنان، (ب.ت) ، 198/2.

[16]. هو العلامة أبو سهل بشْر بن المعْتَمِر الكوفي البغدادي، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، من الأصوليين الكبار، راوية للشعر والأخبار وشاعر، ت21هـ. ينظر: تاريخ الإسلام ووَفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت748هـ، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م ، 40/5.

[17]. البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب – بيروت، ط1، 1968م ، 86/1.

[18]. السابق: 138/1.

[19]. هو أبو مُحَمَّد عبدالله روزبه بن داذويه المشتهر بلقب ابن المقفّع، أحد البلغاء والفصحاء، ورأس الكتّاب، وأولي الإنشاء، من أهل فارس، له مؤلفات كثيرة، ت142هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء: شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت748هـ، دار الحديث– القاهرة، 1427هـ ، 332/6.

[20]. البيان والتبيين: 116/1.

[21]. هو قاضي القضاة مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن عمر، جلال الدين القزويني، أشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، والإيضاح في شرح التلخيص. ت 739هـ. ينظر: الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصَّفديّ ت764هـ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، 1420هـ ، 240/1.

4. الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين الخطيب القزويني ت739هـ ، دار إحياء العلوم – بيروت ، ط4، 1998م ، ص: 13.

[23]. شروح التلخيص: (مجموعة شروح التلخيص يشتمل على خمسة كتب: في صلب المجموعة ثلاثة كتب وهي على الترتيب:

مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي. وفي الهامش كتابين، وهما على الترتيب: الإيضاح للخطيب القزويني صاحب تلخيص المفتاح، وحاشية الدسوقي على الشرح المختصر للسعد التفتازاني)، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، (ب.ت) ، 122/1 – 123.

[24]. هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة. كان من أئمة اللغة، وترك آثارًا مهمة في الشعر والأدب والنحو وعلوم القرآن، ت 471هـ. ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء: 265/1، وسير أعلام النبلاء: 432/18.

[27]. هو إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، الحافظ المفسر الفقيه المؤرخ المعروف بابن كثير، ت774هـ. ينظر: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل بن محمد أمين البغدادي ت1399هـ، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول 1951م، أعادت طبعه: دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان، 215/1.

[28]. ينظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دارطيبة ، ط2، 1999م ، 9/1.

[29]. التفسير والمفسرون: د. محمد السيد حسين الذهبي ت1398هـ، مكتبة وهبة، القاهرة، (ب.ت) ، 183/1.

[30]. ينظر: التفسير والمفسرون: ص: 190 – 191، والخطاب القرآني (دراسة في العلاقة بين النص والسياق)، الدكتورة خُلود العموش، دار الكتاب العالمي عمان– الأردن، عالم الكتب الحديث ، إربد – الأردن، ط1، 2008م ، ص: 82 – 97.

[31]. الأصوليون هم علماء الفقه وعلماء أصول الفقه، ويراد بالفقه: العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلّفين ... كالوجوب والإباحة والندب والكراهة وغيرها... وأصول الفقه عبارة عن أدلة هذه الأحكام وعن معرفة وجوه دلالتها على الأحكام. ينظر: المستصفى: أبو حامد محمد زين الدين الطوسي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ – 1993م ، ص:5.

[32]. هو محمد بن إدريس الشافعي، ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي، وإمام في علم التفسير والحديث، صاحب كتاب " الأم " ت 204هـ. ينظر: التاريخ الكبير: 42/1، وسير أعلام النبلاء: 5/10.

[33]. الرسالة: الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، ط1، 1358هـ –1940م ، ص: 50.

[34]. هو الشيخ الإمام أبو حامد محمد بن ...الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي، صنف الكتب المفيدة في عدة فنون، ت505هـ. ينظر: وفيات الأعيان: 216/4، وسير أعلام النبلاء: 267/14.

[35]. المستصفى: 186/1.

[36]. هو أبو اسحاق إبراهيم بن ... الشاطبي، الإمام الحافظ الأصولي المفسر الفقيه المحدث اللغوي، له مؤلفات كثيرة في علوم العربية والشرعية ت790هـ. ينظر: هدية العارفين: 18/1.

[37]. الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن مُحَمَّد الشاطبي ت 790هـ، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1417هـ –1997م ، ا/266.

[38]. المرجع السابق: 21/4.

[39]. دلالة السياق: د. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، ص: 50 – 51، معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1424هـ.

[40]. غريب الحديث: وصفه الزمخشري بأنه: " كشف ما غرب من ألفاظه واستبهم، وبيان ما اعتاص من أغراضه واستعجم " ينظر: الفائق في غريب الحديث: أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، تحقيق: علي مُحَمَّد البجاوي –مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة – لبنان، ط2، (ب.ت) ، 12/1.

تطلق لفظة الغريب على بعض الكلام ويراد بها معنييان، الأول: أن يراد به أنّ يكون المعنى غامضا، لا يتناوله الفهم إلا بعد معاناة فكر. والثاني: أن يراد به كلام من بعدت به الدار، فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها. وهذا المعنى الأخير هو المقصود بالقول " غريب الحديث " وليس المراد بالغريب الوحشي المخل بالفصاحة، لأن النبي الكريم ﷺ هو أفصح من نطق بالضاد. ينظر: علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي: أ. د هادي نهر، تقديم: أ . د علي الحمد، دار الأمل، إربد – الأردن، ط1، 2007م – 1427هـ ، ص: 441.

[41]. هو مُحَمَّد بن حبان بن أحمد بن حبان، أبو حاتم البستي، ويقال له ابن حبان، مؤرخ علامة جغرافي محدث، وهو من أكثر المصنفين، ت354هـ. ينظر: مقدمة كتاب مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار: ابن حبان البستي، تحقيق: مرزوق علي ابراهيم، دار الوفاء – المنصورة، ط1، 1411هـ – 1991م، 119/1. وسير أعلام النبلاء: 183/12.

[42]. مراعاة السياق وأثره في فهم السنة النبوية: د/ فاروق حمادة، مجلة الإحياء، بحث في مجلة فصلية تصدرها الرابطة المحمدية لعلماء المغرب، عدد: 26، نوفمبر2007م ، ص: 70.

[43]. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان: ابن حبان البستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت739 هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1408هـ – 1988م ، 103/1.

[44]. الحديث باعتبار وصوله إلينا ينقسم إلى قسمين: المتواتر: هو ما رواه عدد كثير، لا بد من وجود هذه الكثرة في جميع الطبقات. والأحاد: لم يجمع هذه الشروط، ينقسم من حيث عدد رواته إلى ثلاثة أقسام: (1) المشهور هو ما رواه ثلاثة. (2) العزيز هو: ما لا يقل رواته من اثنين. (3) غريب هو: ما ينفرد بروايته راو واحد. ويطلق كثير من العلماء على الغريب اسما آخر (الفرد). ينظر: نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عصام الصبابطي – عماد السيد، دار الحديث

– القاهرة، ط5، 1997م ، 721/4.

[45]. هو عبد الله بن عبّاس بن عبد المطلب بن هاشم، حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير وترجمان القرآن، ت68هـ أو 70هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: 279/2 – 284. والتاريخ الكبير: 3/5.

[46]. مراعاة السياق وأثره في فهم السنة: ص: 72.

[47]. المرجع السابق: ص: 73.

[48]. المرجع السابق: ص: 72.